

# التحصينات الدفاعية في مدن المغرب الأوسط، مدينة تنس نموذجاً

الدكتور/ إسماعيل بن نعمان  
معهد الآثار جامعة الجزائر 2

## الملخص:

مثلت التحصينات الوسيلة الأساسية لحفظ الأمن داخل أغلب مدن المغرب الأوسط، واعتبرت من الأعمال الهامة التي يقوم بها الحاكم لحماية المدينة من الأعداء، وتعتبر مدينة تنس نموذجاً من المدن الساحلية في المغرب الأوسط التي مازالت محافظة على بعض المعالم من تحصيناتها الدفاعية المتمثلة في القلعة والسور والأبراج الموزعة على طول امتداده والأبواب الخمسة المفتوحة فيه. واستعمل في بناء هذه التحصينات مواد بناء متوفرة في المحيط الطبيعي الذي تقع فيه، وجاء استعمالها دون غيرها لخصائصها أولاً وللعادات والتقاليد التي كانت سائدة آنذاك في البناء، وكان الهدف هو الوصول إلى أقصى متانة للسور للتمكن من مقاومة وسائل وطرق العدو لاختراقها.

## مقدمة:

استكمالاً للتحصين الطبيعي يلجأ مؤسسو المدن إلى تدعيمه بمباني عسكرية، تتمثل في سور تفتح فيه أبواب وتوزع على طوله أبراج لتسهيل المراقبة والحماية إذا جاءها العدو، وقلعة تحمي الحاكم وتعطل السيطرة على المدينة لما تتميز به من نظام دفاعي إضافي، وتوارث الحضارات طرق وتقنيات بنائها، وكل واحدة تخضعها للتطوير والتغيير حتى تتلاءم مع تطورات وسائل الحروب، وكان للحضارة الإسلامية نصيب من هذا الإرث الذي ورثته عن

الحضارات السابقة لها، وجسدته في قالب يتلاءم مع أهداف الدولة الإسلامية في البقاء لأطول فترة ممكنة.

وزادت مكانة هذه التحصينات أكثر بمرور الوقت وظهور الاضطرابات الداخلية نتيجة الصراع على السلطة بين الأسر الحاكمة، فأول اهتمام يوليه الحاكم بعد وصوله للسلطة هو بناء السور إن لم يكن موجودا وترميمه وصيانته إن كان موجودا.

### 1- التحصين الدفاعي لمدينة تنس من خلال المصادر:

يعتبر بن حوقل<sup>(1)</sup> المتوفى سنة 367هـ/978م أول من قدم وصفا لموقعها الذي تزامن مع مرور مائة سنة على تأسيسها خلال عام 262هـ/875م، فبين ميزة موقعها الذي يجمع بين السهل والجبل وتحصينها بسور فتحت فيه مجموعة من الأبواب. وبعده بسنين قليلة جاء المقدسي<sup>(2)</sup> المتوفى سنة 378هـ/988م بوصف مختصر جدا اقتصر على ذكر موقعها القريب من البحر وسورها ومصدر حصولها على الماء. وفي خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وصف البكري<sup>(3)</sup> المدينة وركز على الموقع الذي بين الكثير من ميزاته، كالمسافة الفاصلة بينه وبين البحر والوادي المحيط به من ثلاث جهات، وأبرز بعدها تحصينها بسور فتحت فيه خمسة أبواب، بابان في جهة القبلة(الجنوب) وباب البحر وباب ابن ناصح في الغرب وباب الخوخة في

1- أبو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص.78.

2- أبو عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط.02، مطبعة بريل ليدن، 1905، ص.378.

3- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثني، بغداد، د.ت، ص.ص.61-62.

جهة الشرق >> وهي مسورة حصينة... ولها بابان إلى القبلة وباب البحر وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقي يخرج منه إلى عين...>>.

ومع بداية القرن السادس الهجري ذكر الإدريسي<sup>(1)</sup> خصوصيات موقعها الذي كان قريبا من البحر ويجمع بين الجبل والسهل ويخرقه واد قادم من جهة الشرق، وأشاد بتحصيناتها بقوله: >>... وقد أحاط بها السور... وهي مدينة قديمة أزلية عليها سور حصين وحظيرة مانعة دائرة بها...>>، وخلال نفس القرن ظهر جغرافي آخر مجهول الاسم ألف كتابا سماه الاستبصار في عجائب الأمصار<sup>(2)</sup> تكلم عن موقعها فقال: >>بينها وبين البحر ميلان... ولها نهر يسمى تامن يأتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشمال والجوف ويصب في البحر...>>، ثم ذكر سورها. أما القزويني<sup>(3)</sup> المتوفى سنة 682هـ/1283م فذكر أولا تحصينها، ثم يبين الوادي المحيط بها.

ووصف حسن الوزان<sup>(4)</sup> الذي أنهى كتابه سنة 933هـ/1526م المدينة وخص موقعها ببعض الكلمات، وقال بأنها بنيت على منحدر جبل قريب من البحر، ثم تحدث عن السور المحيط بها الذي كان قائما في عصره رغم مرور السنين على نشأته، وتزامنا معه أو بعده بفترة قصيرة قدم مارمول وصفا آخر

1- أبو عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق: العربي إسماعيل، ط. 02، د.م.ج، الجزائر، 1983، ص.ص. 152-153.

2 - مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 133.

3- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص. 173.

4 - حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 02، ج. 02، د.غ.إ، بيروت، 1983، ص. 36.



والاقتصادي في نفس الوقت، فبعدما كانت بالحجارة أصبحت فيما بعد باللين ثم تحولت إلى تقنية الطابية التي تعتمد على خرسانة مكونة من الحصى والكلس تكون متماسكة في إطار<sup>(1)</sup>.

ولم تشذ مدينة تنس عن القاعدة التي دأبت المدن الإسلامية على السير عليها في الإحاطة بسور يحميها من أعدائها، لكن معالمة اختفت ولم يبق سوى آثار تدل على مكانه في مواضع قليلة جدا من الجهة الجنوبية الغربية حيث وصل سمكه فيها إلى 1.80م (اللوحة 03/02)، وهذا السمك يحقق غايتين مهمتين هما الزيادة من متانته لعرقلة محاولات اختراقه من طرف العدو، وتوفير المساحة الكافية لإنجاز الممشى حتى يتحرك عليه الجنود بحرية، وحسب الخريطة المنجزة سنة 1875م فإن آثاره كانت موجودة على طول الجهة الشمالية والغربية، وفي معظم الجهة الجنوبية، دون الجهة الشرقية، مخالفة بذلك المصادر التي تبين إحاطته بكل المدينة وقد يعود هذا إلى اندثار معالمة تماما في هذه الجهة قبل إنجاز هذه الخريطة بفترة زمنية طويلة، ومن خلال نفس الخريطة يبرز بوضوح أن السور كان كثير الانكسارات، بسبب الطبيعة الطبوغرافية للموقع (الشكل 02)، وقد كانت هذه الظاهرة منتشرة في بعض المدن المغربية، حتى أصبحت التعديلات على السور ضرورية لإتمام إنجازها لتتلاءم مع التضاريس<sup>(2)</sup>، كما كان للتخفيف من التكاليف الباهظة دورا كبيرا في تجريده من الأبراج في بعض الأماكن

---

1- ج. بروتون بيج، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة: إبراهيم حورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 42.

2 - هـ. تراس، << الحصن في المغرب الإسلامي >>، ترجمة: حسن شكري، في: موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج. 13، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، د.ت، ص. 3990.

وتعويض ذلك بجعله متعرجا أو مسننا للمساعدة في مقاومة العدو إذا جاء من تلك الجهات<sup>(1)</sup>.

ومن خلال البقايا القليلة الموجودة فإن هذا السور بني على غرار أغلب مدن المغرب الإسلامي بالطابية، وهذه الطريقة هي من أقدم التقنيات التي استعملها الإنسان في مبانیه، وساد استخدامها أكثر عند المسلمين وشملت كل أنواع العمارة بما فيها العسكرية والمدنية والدينية<sup>(2)</sup>. ويرجع تفضيل هذه التقنية عن غيرها إلى سهولة الإنجاز بها وسرعته، وقلة تكلفتها الناتجة عن وفرة التراب الذي يمثل مادتها الأساسية، وتماثل الأسوار المبنية بها من حيث السمك والارتفاع لاعتمادها على قالب ذو مقاسات ثابتة يحرك أثناء الإنجاز أفقيا وعموديا (الشكل 03).

ويتشكل السور المنجز بتقنية الطابية من أساس منجز بحجارة غير منتظمة مربوطة إلى بعضها بكميات كبيرة من الملاط، وقسم أرضي علوه يصل إلى غاية 0.50م مبني بالحجارة الطبيعية الممزوجة مع كمية كبيرة من الملاط للزيادة من صلابته، وللتقليل من تأثير الماء والرطوبة عليه، وحمايته من محاولات التهدم أثناء الحروب<sup>(3)</sup>، ثم يتواصل البناء باستخدام تقنية الطابية، ويكون عرض السور فيها كبيرا جدا وصل إلى 1.80م في مدينة تنس، وعند الاقتراب من

---

1 - ليوبولدو توريس بالباس، المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة: البوردو دي لابنيا، ط.01، الرياض، 2003، ص.192.

2 - J-P.VANSTAEVEL, <<Réflexions à propos de la nomenclature médiévale de l'architecture de terre en occident musulman: l'exemple du TABIYA>>, in: **l'architecture de terre en méditerranée**, Rabat, 1999, p.95.

3 - P.DOAT et A.HASY et S.MATUK et F.VITOUX, **Construire en terre**, paris, 1985, p.37.

العلو المرغوب فيه يتم تضيق سمك السور، ويستمر في الارتفاع في الجهة المقابلة لخارج المدينة بمقدار يُسهل على الجندي الاختباء عند الحاجة ، وما تبقى من سمك الجدار يتحول إلى سطح يُسهل حركة الجنود يسمى بممشى السور (الشكل 01/04 واللوحة 02-01/02)، ويمكن هذا الممشى من رؤية أفضل ومرمى أبعد وأوسع، وتتوج هذه الأسوار بشرفات يتجاوز ارتفاعها 0.50م تنجز عادة بالحجارة أو بنفس مادة بناء السور وتغطي بهرم، وتبتعد عن بعضها البعض بمسافة تصل إلى 1.20م (الشكل 04 واللوحة 01/02)، ووظيفتها الأساسية هي تسهيل الاختباء وراءها للجندي المكلف بالحراسة وهو واقف وتسد يد ضربات سلاحه من الفراغ الموجود بين الواحدة والأخرى<sup>(1)</sup> (الشكل 04).

وتتميز الأسوار المنجزة بتقنية الطابية بالارتفاع للزيادة من قدرتها الدفاعية، ففي الأندلس مثلا وصل ارتفاعها في بعض المدن إلى إحدى عشر مترا، وفي أغلب الأحيان تتركب من عشرة إلى إحدى عشر قنبا، وارتفاع كل قنبا يبلغ 0.80 إلى 0.85م<sup>(2)</sup>، ويتم تكسية هذه الأسوار بطبقة سمكها عدة سنتيمترات تتكون من خليط من الجير والرمل<sup>(3)</sup> لحماية مادة بنائها من التأثير المباشر للعوامل الطبيعية.

## 2-2- الأبراج:

---

1 - P.RICARD, Op.cit, p.221.

- عثمان عبد الستار، << المدينة الإسلامية >>، في مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 128، أوت 1988، ص.138.

2 - باسيليو بابون مالدونادو، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة علي إبراهيم منوفي، مج01، القاهرة، 2005، ص.479.

3 - نفسه، مج02، ص.335.

يمثل البرج وسيلة مثلى لحل النقائص التي توجد في الأسوار فهو يسهل عملية مراقبة الأجزاء السفلى من الأسوار والزوايا والأركان<sup>(1)</sup>، وبواسطته يمكن اكتشاف الأخطار القادمة قبل وصولها إلى المدينة<sup>(2)</sup>، يماثل ارتفاعها ارتفاع الأسوار أو تفوقها، وتكون بارزة عن الجدار إلى خارج المدينة، ومملوءة من الداخل ببقايا مواد البناء، ويتم توزيعها في الأركان الأربعة للسور المحيط بالمدينة وعلى طول مساره بمسافات تصل إلى حدود عشرين مترا بما يسمح بوصول رمية سهم القوس<sup>(3)</sup>.

وقد استخدم في مدينة تنس عدة أبراج وزعت في أماكن مختلفة من السور للزيادة من فعاليته، ومن خلال المعاينة الميدانية للموقع، والخريطة المنجزة من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي سنة 1875م، يمكن حصر عددها في خمسة أبراج موزعة على امتداد السور، يقع اثنان منها في وسط الجهة الشمالية (الشكل 02 واللوحة 01/10-11) يمكن التعرف عليهما من خلال بقايا أساسهما، حيث ما يزال السور الخارجي للأساس الذي بني لتسوية أرضيتهما من جهة انحدار الوادي المحيط بالمدينة قبل الشروع في بناء الأسوار الثلاثة المتبقية لكل منهما، علما بأن الخريطة القديمة لمدينة تنس لم تشر إليهما. أما البرج الثالث منها فيقع قرب الركن الشمالي الشرقي (الشكل 02 واللوحة 01/09) وبقيت منه آثار قليلة من أساسه المواجه للوادي، وموقعه لا يتخذ الركن بالضبط وإنما يمتد في آخر جزء من الجدار الشمالي، لهذا فهو يتخذ من سور المدينة أحد أسواره، وحسب

---

1 - P.RICARD, Op.cit , p.p.223-224.

2 - شاعر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج.01، ط.02، دار طلاس، دمشق، 1997، ص.450.

3 - باسيليو بابون مالدونادو، العمارة في الأندلس، مج.01، ص.490.

الخريطة المشار لها سالفا فإن مقاساته هي 6.00م×5.00م وهو بارز كله خارج سور المدينة.

ويقع البرج الرابع في الركن الجنوبي الغربي (الشكل 02 واللوحة 03/01) ولم يبق منه حاليا إلا آثار قليلة، تبين أنه كان مصمما ويطلق عليه تسمية البرج القبلي لوقوعه في اتجاه القبلة، وللتمكن من تحديد موقعه ومخططه العام يمكن الاعتماد على الخريطة القديمة الخاصة بالمدينة، فهو برج يلتصق بسور المدينة في جهتيه الشمالية والشرقية، دون أن يتخذ منه سورا خاصا به، شكله مضلع غير منتظم حيث تم إحداث انكسارات في سوريه الشمالي والجنوبي، مما نتج عنه تقليص لمساحته، وبلغ طول سوره الغربي 9.00م وسوره الجنوبي 7.00م، أما السوران المنكسران فطولهما مختلف بالنسبة للشرقي الذي يمتد على مسافة 3.00م ثم ينكسر ويواصل امتداده بعد ذلك بمقدار 3.00م، بينما يمتد السور الشمالي بـ 4.00م، ثم ينكسر ويواصل امتداده بعد ذلك بـ 3.00م. وآخر برج يقع في الجهة الغربية (الشكل 02 واللوحة 02/01) لم يبق منه الكثير، حيث ما يزال شاهدا على مكانه وطرازه سور واحد فقط مبني بتقنية الطابية، وما يثير الاستغراب هو غيابه من الخريطة المنجزة للمدينة في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لها، وتعذر معرفة مخططه لصعوبة الوصول إليه.

ومن خلال ما تم استعراضه عن هذه الأبراج، فإن دورها الأساسي يقتصر على الحراسة العلوية فقط، وتقع بارزة الأسوار إلى الخارج إذا كانت على امتداده ومتخذة منه أحد أسوارها، ويبقى ركن منها فقط إلى الداخل إذا كانت تقع في الأركان، وعند مقارنتها مع ما هو موجود في مدن إسلامية أخرى، فإنها تتماثل معها في الموقع خارج الأسوار خاصة في بلاد المغرب

الإسلامي<sup>(1)</sup>، وتختلف معها في عددها الذي هو قليل جداً، ففي بعض المدن كانت تتوزع بأعداد كبيرة على الامتداد الأفقي للصور على مسافات متساوية لا تتعدى ثلاثين متراً حتى تكون فعالية الأسلحة المستعملة آنذاك أفضل، لأن تصويبها يكون قصيراً مثل السهم الذي لا يتعدى العشرين متراً<sup>(2)</sup>، ويمكن تفسير قلتها بالموقع الحصين الذي تتمتع به المدينة، واتساع مجال الرؤية بسبب الارتفاع المتدرج للموقع كلما كان التقدم أكثر من الغرب إلى الشرق، وهو ما يسهل الرؤية والمراقبة من الأسوار بعلوها دون الحاجة إلى تدعيم هذا العلو أكثر بإنجاز الأبراج.

وقبل الشروع في بناء أسوار الأبراج يتم تدعيم أرضيتها وتسويتها من جهة المنحدر بسور من الحجارة الطبيعية بشكل عشوائي مع كميات كبيرة من الملاط، ثم تبني إلى ارتفاع لا يتجاوز المتر بالحجارة المنتظمة، وبعدها يشرع في استعمال تقنية الطابية لمواصلة البناء، وفي أثناء ذلك توضع أغصان شجر العرعار في أماكن مختلفة منها للزيادة من تماسك البناء ومثانته، وطريقة بنائها كانت أولاً تبني مجوفة بأسوار يتراوح سمكها بين 2.10م إلى 1.00م، ثم تملأ في وسطها بالتراب الممزوج ببقايا مواد البناء المستعملة في المدينة، مثل التراب والحجارة الصغيرة الطبيعية والمتبقية بعد تشذيب الحجارة المستعملة في البناء، وقطع الآجر وقطع القرميد وقطع خشبية مختلفة السمك والطول (اللوحة 04/03-04) إلى غاية الوصول إلى الارتفاع المطلوب، وما تبقى من ارتفاع أسوار البرج يستخدم كحاجز لحماية المدافعين عن المدينة، وتتوج هذه الأسوار بشرافات يفوق طولها 0.50م (الشكل 04 واللوحة 02-01/02)، وهو ما ينتج عنه برج

1 - ج. بيرتون بيچ، المرجع السابق، ص. 34.

2 - نفسه.

- هـ. تراس، المرجع السابق، ص. 3992.

مصمت فعاليته تكون أكبر من البرج المخوف لاستحالة حرقه، ويكون الانتقال إلى سطحه عن طريق المشى الموجود على سطح السور. وقد تم استخدام هذا النوع من الأبراج في المدن الواقعة في المغرب الإسلامي، وتجسد بشكل منتظم في بعض مدنه مثل أسوار مدينة المنصورة بتلمسان التي تعود للعهد المريني (اللوحة 02/04)، وفي بعض المدن الأندلسية قسم البرج إلى طابقين طابق أدنى مصمت، وطابق علوي تشغله غرفة واحدة أو غرفتين فوق بعضهما، فتحت فيها منافذ تسدد من خلالها السهام (اللوحة 02/02).

## 2-3- الأبواب:

تمثل الأبواب الواسطة التي تربط بين عالم المدينة الداخلي والخارجي ووسيلتها للحصول على كل مستلزمات سكانها، ويختلف عددها من مدينة لأخرى، وسمحت البقايا الأثرية بتحديد موقع باين هما باب البحر وباب بن ناصح، أما الأبواب الثلاثة الأخرى التي أشار إليها البكري فبقاياها غير موجودة. والتعدد في المداخل هو ظاهرة إيجابية تسمح بتسهيل حركة الناس من وإلى المدينة دون حدوث ازدحام، وقضاء الحاجات من الباب القريب إلى مصدرها، فمثلا في مدينة تنس يخرج السكان لجلب الماء من النهر من بابي القبلة لوجودهما على حافة وادي علالة، وماء الشرب من عين عبد السلام انطلاقا من باب الخوخة، والخروج إلى الميناء من باب البحر وهكذا، ومن خلال الآثار الباقية لباب البحر وباب ابن ناصح وحديث البكري عنهما دون ربطهما بوجود برج من عدمه، يمكن ترجيح فكرة كون الأبواب الثلاثة المتبقية للمدينة فتحت في بدن الأبراج، ووزعت هذه المداخل في سور المدينة كما يلي:

## 2-3-1- باب في الركن الشمالي الغربي:

حسب ما ذكره البكري من أسماء الأبواب فهو باب بن ناصح نظرا لأنه شمله مع باب البحر، وأمکن معرفة الجهة الواقع فيها انطلاقا من بقاء باب البحر صامدا إلى يومنا هذا، والمعلومات المتوفرة عنه تبين أنه مشهور باسم البرج البحري، كما أن بعض الروايات تمنحه اسما آخر هو باب الرمان وآثاره مازالت موجودة إلى يومنا هذا (اللوحة 01/12).

ومن خلال آثاره التي مازالت بارزة فوق سطح الأرض بارتفاع متباين من سور لآخر تظهر فتحة الباب في السور الشمالي منه، وحسب الخريطة الأثرية القديمة للمدينة (الشكل 02)، فإن مقاساته هي 09.00م×6.00م، وتم بناء جداره الشمالي والشرقي في موقع منحدر، حيث تم أولا إنجاز سور في منحدر الوادي بحجارة صغيرة الحجم وغير منتظمة الشكل والترتيب، ممزوجة بكمية كبيرة من الملاط إلى غاية الوصول إلى الأرضية المسطحة، ثم شرع في بناء ما تبقى من أسواره بتقنية الطابية، ولأنه واقع في الركن بالضبط، فإن أسواره كلها منفصلة عن أسوار المدينة وتم إلصاقها فيه من الجهتين الشرقية والجنوبية، فكانت معظم أجزائه بارزة إلى الخارج باستثناء ركنه الشرقي الجنوبي الذي بني داخل حدود المدينة.

## 2-3-2- بابا القبلة:

واقعان في الجهة الجنوبية، ومكانهما لم تحدده المصادر، ويمكن الاستدلال عن مكان الباب الأول من خلال صورة قديمة (اللوحة رقم 01/13)، وهو الباب الذي ينتهي إليه الشارع الرئيسي الثاني للمدينة، فهذا الشارع يمتد من الرحبة الواقعة قريبا من باب البحر وتقع على جوانبه عدة منشآت مهمة في المدينة مثل مسجد سيدي بلعباس والسوق، وهو الباب الذي ذكره PONTIER في

كتابه وقال عنه باب العين<sup>(1)</sup>. أما الباب الثاني فمخططه موجود على الخريطة المنجزة سنة 1875م، (الشكل 02) وهو مفتوح في برج شكله مستطيل قليل الانتظام في ضلعه الشمالي، ومقاساته 6.00م×3.50م، ويطل كل واحد منهما مباشرة على ضفة الوادي وهو ما يحدد استخدامهما الأساسي في الخروج لـ جلب الماء منه، أو غسل الثياب على ضفته.

وتسميتهما كانت شائعة عند المسلمين وهي تعبر عن الاتجاه الجغرافي الذي يقع فيه الباب، واستخدم في مدينة سرقسطة الإسبانية<sup>(2)</sup>، ومن أمثلة الاتجاهات التي تسمى بها أبواب المدن نذكر باب الشمس في كل من غرناطة وفاس وإشبيلية وطليطلة<sup>(3)</sup>.

### 2-3-3- باب الخوخة:

يقع هذا الباب في الجهة الشرقية، ويمكن توقع مكانه في النصف الشمالي من السور الموجود فيه، وهذا ليكون بعيدا بمسافة آمنة عن قلعة الحاكم الواقعة في الجهة الجنوبية، ولا آثار له حاليا، والتفسير اللفظي لتسميته منسوب للباب الخشبي الذي كان مثبتا فيه، والمتميز بوجود باب كبير يتوسطه باب صغير، يستخدم للخروج والدخول منه دون الحاجة إلى فتح الباب ككل، وانجازه في هذا المكان بالضبط يعود لوجود عين عبد السلام<sup>(4)</sup> التي تعتبر المصدر الأساسي لمياه الشرب في المدينة بعد مياه الوادي، وبالتالي فإن الحركة تكاد لا تنقطع عن هذا الباب، وحتى لا يبقى مفتوحا كله من أول النهار إلى آخره مع

---

1 - R.PONTIER, **Souvenirs de l'Algérie ou notice sur Orléans ville et Ténès**, Paris, 1850, p.49.

2- ليفي بروفسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: سالم محمد عبد العزيز وحلمي محمد صلاح الدين، راجعه: لطفي عبد البديع، م.ش.ج، الإسكندرية، 1990، ص.59.  
3 نفسه، ص.59.

4- البكري، المصدر السابق، ص.62.

ما يتطلب ذلك من حذر شديد خاصة وأنه يقع قريب من قلعة الحاكم، وقد كانت هذه التسمية منتشرة في كثير من مدن الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط، فنجد في لشبونة وسرقسطة وطليطية وفي الجزيرة الخضراء وتلمسان<sup>(1)</sup> وفاس<sup>(2)</sup>.

## 2-3-4- باب البحر:

وهو الباب الوحيد الذي ما يزال قائما (اللوحين 01/01 و 02) ويقع في الجهة الغربية من المدينة، وهو في حالة متدهورة. ويمثل هذا الباب المفتوح في بدن برج يحمل اسمه أهم البقايا الأثرية الدالة على قدم المدينة، وهو الواجهة التي تصد كل قادم من البحر فتسمح له بالدخول أو تمنعه بعد معرفة غايته من الزيارة، ويصعب تحديد تاريخ بنائه لعدم وجود وثائق تثبت ذلك، وقد خضع لترميمات عديدة بعضها أثناء الاحتلال الفرنسي والبعض الآخر بعد الاستقلال.

### -الخصائص المعمارية والفنية لبرج باب البحر:

اتخذ البرج الشكل المربع بطول قدره 7.90م لكل ضلع من أضلاعه، وتميزت أسواره باختلاف سمكها الذي تراوح بين 2.10م و1.20م (الشكل 05)، وبلغ ارتفاعه 13.50م، ويتركب من قسمين رئيسيين، هما قسم الدخول والقسم المركزي، فالأول طوله 2.60م مركب من ثلاثة أجزاء (اللوحة 04/02)، والثاني يليه ويشغل حيزا مربعا طول كل ضلع منه 4.10م، وهو مغطى بقبة دائرية الشكل محمولة على أربعة أقواس نصف دائرية أنجزت في كل جدار من الجدران الأربعة للساحة المركزية، وتلتقي في الأركان مشكلة

1- ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص.69-70.

2- نفسه.

-R.LE TOURNEAU, *Les villes musulmanes de l'Afrique du nord*, Alger, 1957, p.17.

حنايا ركنية ملأت هي الأخرى بقطع من الأجر بارزة بنفس مقدار بروز الأقواس، وهو ما أدى إلى تشكيل دائرة قامت عليها القبة، التي تم تشكيلها بصفوف من الأجر بارزة متراصة فوق بعضها على هيئة دوائر متناقصة في القطر إلى غاية مركز القبة، وهذه الطريقة في تشكيلها جعلتها تبدو في هيئة زخرفية جميلة.

وقد فتحت في أسوار البرج ثلاث فتحات (الشكل 05)، واحدة في الجهة الشمالية تمثل باب الدخول إلى البرج المشار له سالفا (اللوحة 04, 01/02)، والأخرى مقابلة لها في الجهة الجنوبية عرضها 2.40م وعمقها 1.20م وهي مسدودة حاليا (اللوحة 02/02)، وحسب طريقة بناء السور الذي سدت به، فإنه يشبه كثيرا طريقة بناء أسوار بعض منشآت المدينة، مما يوضح بأن سدها قديما والذي جاء نتيجة لحدوث هجوم أو غزو للأعداء على المدينة والذي ساهم هذا الباب في تسهيله، أو تم سده بعد أن أصبح إنشاء المداخل المنكسرة ضرورة أمنية في فترات لاحقة لبناء البرج. وتقع الفتحة الأخيرة في الجدار الشرقي منه عرضها 2.50م وعمقها 1.85م (اللوحة 03/02) وتشكل مع فتحة الدخول ممرا منكسرا بزاوية قائمة تسهل عملية مراقبة حركة الدخول والخروج من وإلى المدينة، وهو تقليد ميز العمارة العسكرية الإسلامية منذ سنوات تطورها الأولى، ويعلو هذه الفتحات الثلاث أقواس نصف دائرية مشكلة بقطع الأجر، ترتفع عن مستوى سطح الأرض بـ 2.60م .

وأهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الباب هي الواجهة الرئيسية التي تم العناية بها زخرفيا ( الشكل 05 واللوحة 01)، وهذه العناية التخطيطية والزخرفية تبرز أهمية هذا الباب ومكانته في المدينة، فهو يمثل الباب الرئيسي لها، وتتضاعف قيمته أكثر باعتباره من النماذج القليلة من نوعه المتبقية في العمارة العسكرية خلال العصور الوسطى في الجزائر، وكل ما ذكر في المراجع عما يماثله من

أبراج يعود إلى مراحل لاحقة لفترة بنائه، فالباب كان موجودا فعليا منذ عهد البكري الذي أعطى وصفا للمدينة، ولم يشر في وصفه أنه حديث النشأة بل شمله مع حديثه حول المدينة ككل، وهو ما يعني تاريخيا أنه أقدم من فترة وصفه، وبالتالي فهو يعود إلى ما قبل القرن 05هـ/11م، أما المراجع فتركز على الأبواب المنشأة في بلاد المغرب على هذا النمط انطلاقا من ذلك القرن وليس قبله وتعددها كأقدم النماذج<sup>(1)</sup>.

ويبقى التساؤل المطروح هل هذا البناء أصلي أم أعيد بناؤه بعد تدميره أو انهياره؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يمكن ذكر مايلي:

\* الباب تم تمييزه بعمارته وزخرفته منذ نشأته، وهو أمر فيه نظر لأن النمط المعماري والزخرفي للباب انتشر كثيرا في العهد الموحد، وواجهته الرئيسية تشبه بعض الأبواب الموحدية المنتشرة في مدن المغرب الأقصى، وأقدم زمن له يمكن حصره بين القرنين الخامس والسابع الهجريين باعتبار أن مدخله المنكسر ذو انكسار واحد وهو تقليد دأبت عليه العمارة العسكرية الإسلامية في تلك الفترة، وبعدها أصبحت المداخل المنكسرة متعددة الانكسارات<sup>(2)</sup>، كما يمكن رده إلى العهد المرابطي لوجود القوس المفصص في زخرفته لأن هذا القوس ساد استعماله في هذا العهد.

\* كان انجازه كبقية الأبواب بمدخل بسيطة تحفها قطع الأجر، لكنه تدمر مما استدعى إعادة بنائه في الفترة الموحدية التي غلب فيها استعمال مثل هذه الأنماط

1 - هـ ترانس، المرجع السابق، ص.3994 وما يليها.

- P.RICARD, Op.cit , p.228 et ss

2 - أسامة طلعت عبد المنعم، >> ملامح تخطيط المدخل المنكسر في العمارة الدفاعية بين مصر والغرب الإسلامي فيما بين القرنين 5 و7 الهجريين (11-13م) <<، في كتاب: الندوة العلمية: التواصل الحضاري بين أقطار العالم العربي من خلال الشواهد الأثرية، جامعة القاهرة، القاهرة، 2000، ص.340.

من الأبواب، وهو احتمال فيه جانب كبير من الصحة، والدليل على ذلك اختلافه مع طريقة تشكيل الباب الموجود في برج بن ناصح القريب منه في الركن الشمالي الغربي والبرج الواقع في القلعة.

## 2-4- القلعة وقصر الحاكم:

حظي موقع إقامة الحاكم وحاشيته منذ العهود الأولى للإسلام بعناية بالغة تجسدت في اختيار موقع خاص يكون قريبا من المسجد لوجود تكامل وظيفي بينهما<sup>(1)</sup>، وزادت العناية به أكثر مع بروز الصراعات والثورات الداخلية طلبا للحكم، فأصبح يتصف بالتحصين الجيد الذي جسد بأسوار محكمة البناء وموقع محمي طبيعيا ومعزول عن مساكن عامة الناس، وتحول إلى ما يشبه مدينة صغيرة محاطة بسور يتخذها الحاكم مقر له ولحاشيته<sup>(2)</sup>.

وتجسد هذا النمط بصورة أكثر في مدن المغرب الإسلامي التي لا تخلو مدينة منه إلا نادرا<sup>(3)</sup>، حيث يتم أولا اختيار أحسن وأعلى موقع في المدينة مما يجعله مطل على معظم أنحائها<sup>(4)</sup>، ويكون حماية لها في حد ذاته<sup>(5)</sup>، ثم تحاط مبانيه المتمثلة في قصر الحاكم ودواوين الإدارة بسور يزود أحيانا بأبراج للمراقبة، ويسمى حينها بالقصبة<sup>(6)</sup>، ويكون دائما بجوار سور المدينة بغرض

1 - عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص.117.

2 - ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السابق، ص.193.

3 - A.CHOISY, **Histoire de l'architecture**, T.II, Gauthier-Villars, Paris, 1899, p.133.

4- G.MARCAIS, <<l'Urbanisme musulman>>, in **mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman**, T.I , imprimerie officielle, Alger, 1957, p.228.

- P.RICARD, Op.cit, p.233. 5

6 - عثمان عبد الستار، << المدينة الإسلامية >>...، ص.158.

- هـ.تراس، المرجع السابق، ص.3985-3986.

الخروج منه دون المرور بشوارعها<sup>(1)</sup>، وزود موقع إقامة الحاكم في كثير من المدن بباب سري يستخدم للهروب أثناء الخطر، وسمي بعدة أسماء مثل الخيانة أو النجدة أو النقبة أو الغدر<sup>(2)</sup>، وهذا الإفراط في التأمين يعود أساسا إلى الرغبة في الوصول إلى أقصى درجات الحماية من الاضطرابات الداخلية والاعتداءات الخارجية<sup>(3)</sup>.

وكانت قلعة مدينة تنس دوما عائقا للقضاء على حاكمها، فكلما تمكن ثائر أو قائد لدولة أخرى من اقتحام المدينة إلا وواجهته مشكلة القضاء على حاكمها أو إلقاء القبض عليه، وهي المكان الأخير الذي يحمي الحاكم، فإما أن يستسلم أو يفر إن كان له منفذا معدا خصيصا لمثل هذه الظروف، أو يقتل نفسه مثلما حدث مع علي بن راشد المغراوي الذي قتل نفسه في أحد زوايا قصره بتنس في شهر محرم سنة 752هـ/1352م أثناء حربه مع الزيانيين<sup>(4)</sup>.

وانطلاقا مما ذكرته المصادر عن خصوصيات موقع القلعة فإنه يمكن اعتبار أبراج الغولة مكانا لها، فهذا المكان ذو مناعة طبيعية لوجوده في حيز بارز عن موقع المدينة ككل ناتج عن انعطاف الوادي من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشرقية للمدينة، وتتميز حافته بقلة الميلان مما يصعب أو حتى يمنع تسلقها في حالة قلة المياه في الوادي أو جفافه، كما يتميز هذا المكان بالارتفاع الذي وصل

1 - ليوبولدو توريس بالباس، المرجع السابق، ص.193.

2 - عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص.157.

3 - CHOISY (A), Op.cit , p.134.

4 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب ديوان العرب والمبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج.02، موفم للنشر، الجزائر، 1995، ج.14، ص.ص.90 و197 و198.

إلى 36م عن مستوى سطح البحر مما يساعد على مراقبة كل الحركات التي تحدث داخل وخارج المدينة من أغلب جهاتها خاصة إذا استعملت الأبراج. وتمثل البقايا المعمارية المنتشرة فيه عنصرا إضافيا للدلالة عليه، فالموقع ينفرد بوجود أربعة أبراج موزعة على استقامة واحدة وتبتعد عن بعضها بمسافات قصيرة (اللوحة 01/04)، كما توجد بقايا للصور الرابط بين الأبراج الأربعة السالفة الذكر (اللوحة 02/04)، وأسس أسوار أخرى ملتصقة معها ومتجهة إلى داخل المدينة، ومن أكثر الدلائل المعمارية الموجودة فيها الخزانات التحت أرضية والأرضية المنتشرة في أماكن متفرقة منها، والتي تعين على مقاومة الحصار مهما طال أمده، وفي مقابل هذه البقايا تنعدم المساكن في محيط كبير منه لأن مثل هذه الأماكن يمنع الاستقرار قربها.

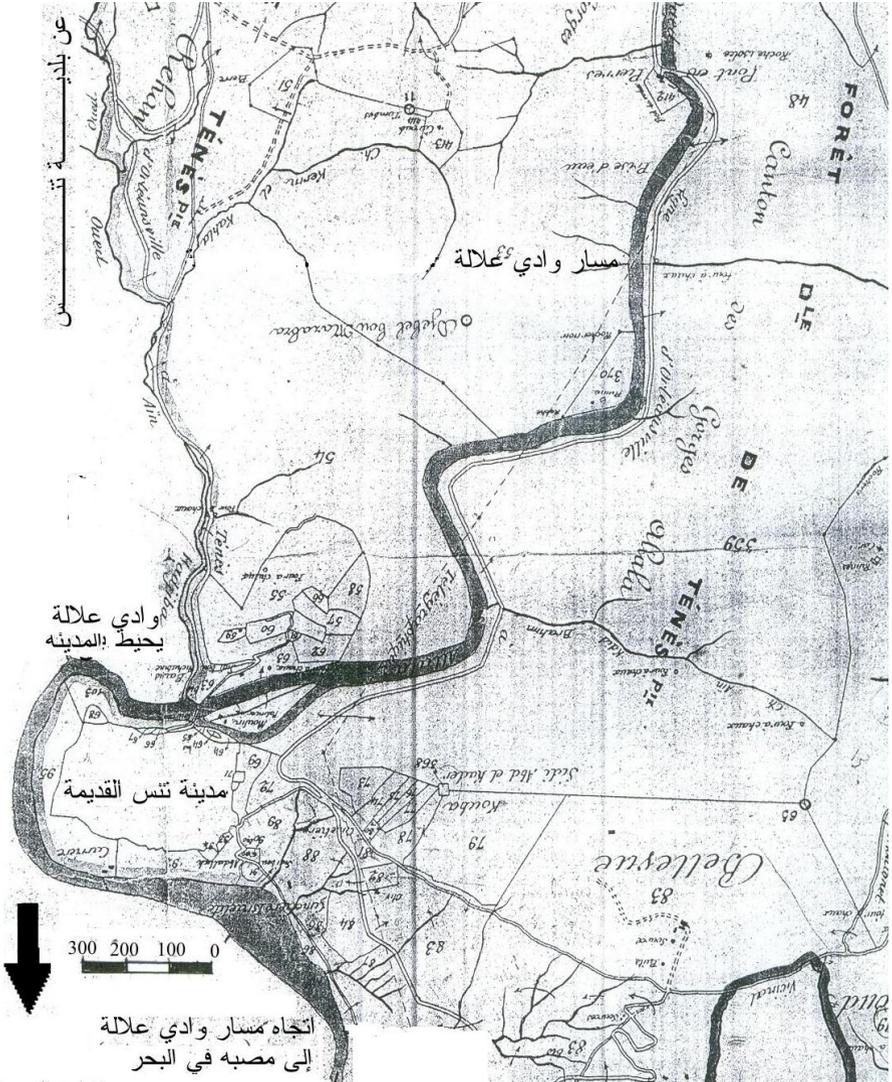
ومن خلال البقايا الأثرية المتوفرة يمكن تقسيم القلعة إلى قسمين يفصل بينهما سور تتخلله ثلاث أبراج مصمتة وبرج فتح فيه باب، ويتمثل القسم الخارجي (المكشوف) في مساحة غير منتظمة الشكل نهاياتها محددة بسور زالت معظم معالمه البارزة فوق سطح الأرض، وبقيت فقط الأسس الملتصقة مع حافة الوادي، وتعتبر هذه المساحة عنصرا أساسيا في تشكيل الحصون، وتحتوي على خزانات أرضية وتحت أرضية والقسم الداخلي يتمثل في المساحة المبنية (الشكل 06).

#### الخاتمة:

من خلال ما ذكر سابقا فإن تحصين مدينة تنس اعتمد على عنصرين أساسيين في حمايتها، تمثل الأول في التحصين الطبيعي والذي تجسد بحسن اختيار الموقع البعيد عن ساحل البحر لحمايتها من الهجمات المباغته والسريعة، والمحمي بجبال شاهقة الارتفاع وواد أحاط بها من ثلاث جهات، إضافة إلى أنه كان على هضبة متدرجة الارتفاع كلما اتجهنا إلى عمق المدينة، مما مكن من الإشراف

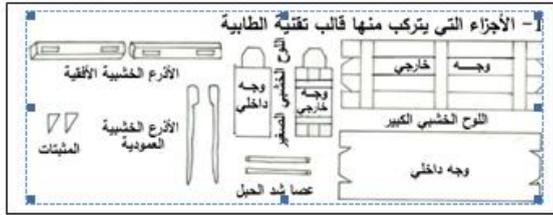
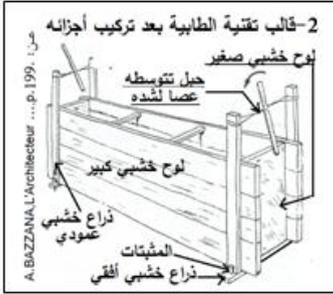
على محيط المدينة، أما التحصين الثاني فكان مشكلا من سور محيط بها مدعما  
بأبراج للمراقبة، ومداخل لربطها بالعالم الخارجي، إضافة إلى قلعة حصينة.  
وتبرز أهمية السور أكثر كلما قل الاستقرار وسادت الفوضى الناتجة عن  
هجمات الأعداء برا وبحرا، والصراع الداخلي على الحكم فيكون حاميا لها من  
أعدائها ومساعدة لحكامها على فرض الاستقرار، والأحداث السياسية التي  
عرفها المغرب الأوسط بما فيه مدينة تنس خير دليل على ذلك.

## ملحق الأشكال

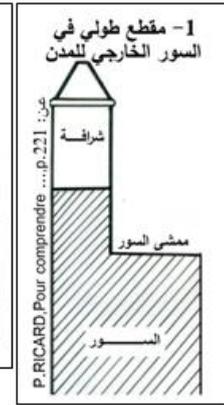
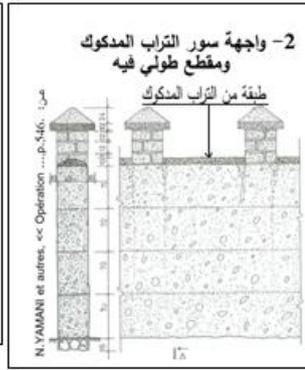
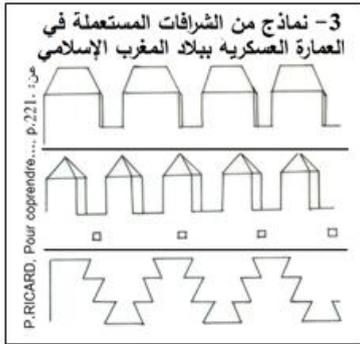


الشكل رقم 01: موقع مدينة تنس ووادي علالة يحيط بها



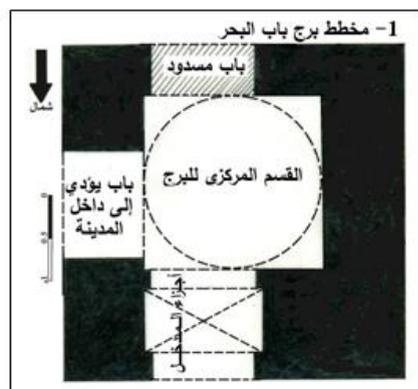
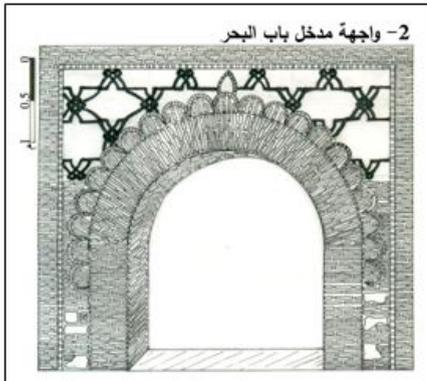


الشكل رقم 03: القالب الخشبي المستعمل في البناء بتقنية الطابية

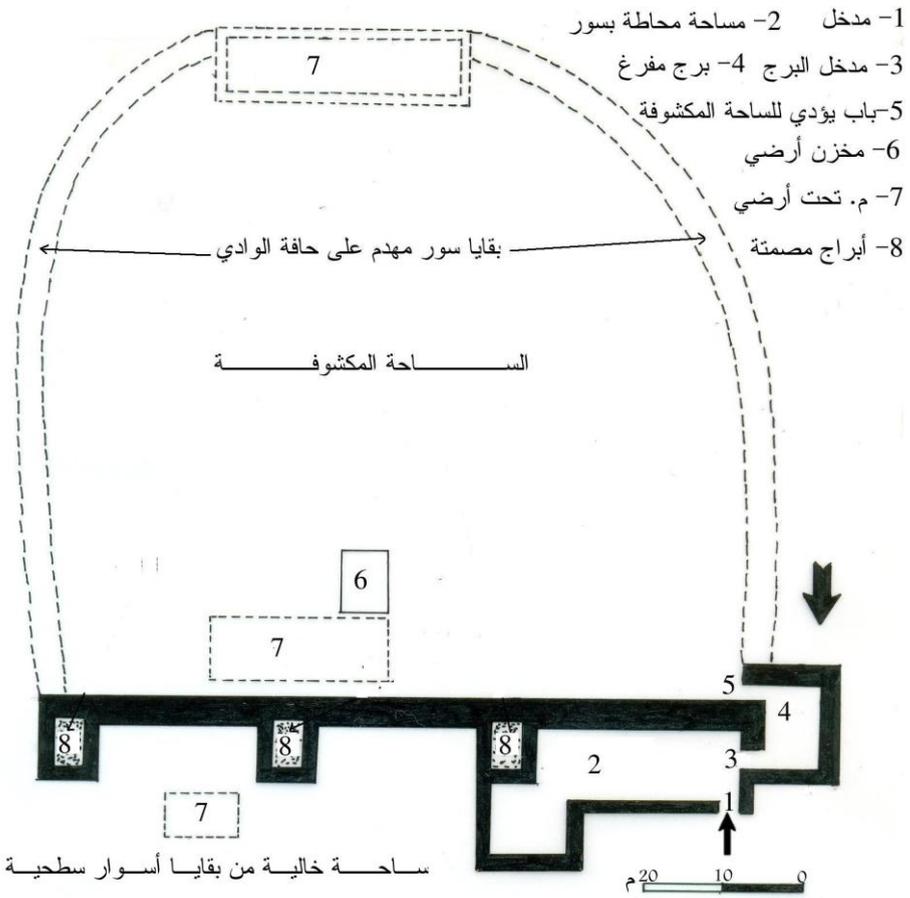


الشكل رقم 04:

السور الخارجي للمدن الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي

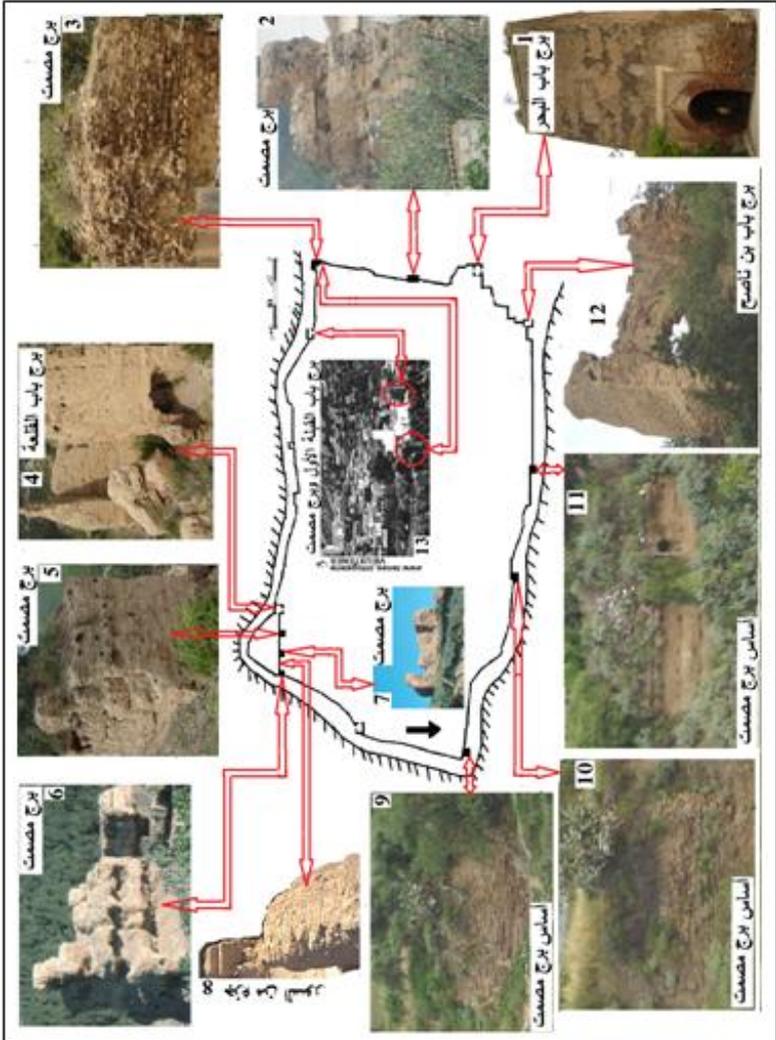


الشكل رقم 05: برج باب البحر



الشكل رقم 06: مخطط تقريبي لبقايا القلعة

## ملحق اللوحات



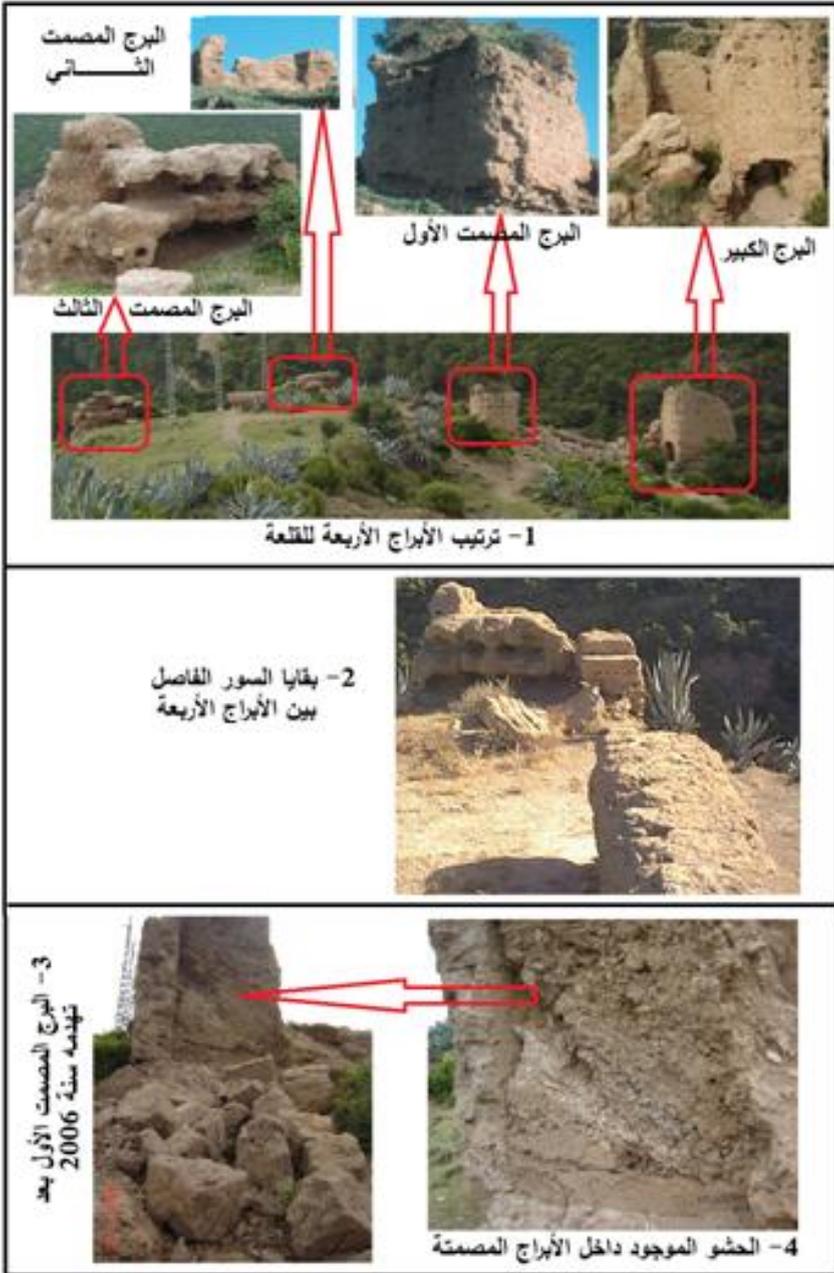
اللوحة رقم 01: بقايا السور والأبراج والقلعة في مدينة تنس



اللوحة رقم 02: نماذج من أبراج وأسوار المدن الإسلامية



اللوحة رقم 03: برج باب البحر



اللوحة رقم 04: تركيب قلعة الحاكم (برج الغولة)



- مصطفى (شاكر) ، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، ج.01، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1997.
- المقدسي (أبو عبد الله محمد)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط.02، مطبعة بريل ليدن، 1905.
- مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- الوزان (حسن)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.02، ج.02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

## 2- باللغة الفرنسية:

- BAZZANA (A), <<L'architecture de terre au Moyen-Âge: Considérations générales et exemples andalous >>, in: **l'architecture de terre en méditerranée**, Rabat, 1999, p.p.169-202.
- BERRAD (M.A), **Description nautique des côtes de l'Algérie** , imprimerie royale, Paris, 1837.
- CHOISY (A), **Histoire de l'architecture**, T.II, Gauthier-Villars, Paris ,1899.
- DOAT (P) et HASY (A) et MATUK (S) et VITOUX (F), **Construire en terre**, paris, 1985.
- LE TOURNEAU (R), **Les villes musulmanes de l'Afrique du nord**, la maison des livres, Alger,1957,
- MARCAIS (G), **Algérie médiévale monuments et paysages historiques**, Arts et métiers graphiques, Paris, 1957.
- MARCAIS (G), <<l'Urbanisme musulman>>, in **mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman**, T.I , imprimerie officielle, Alger, 1957, pp.218-231.
- PONTIER (R), **Souvenirs de l'Algérie ou notice sur Orléans ville et Ténès**, Paris, 1850.
- RICARD (P), **Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique de nord et en Espagne**, librairie Hachette, paris, 1924.

-VANSTAEVEL (J-P), << Réflexions à propos de la nomenclature médiévale de l'architecture de terre en occident musulman: l'exemple du TABIYA >>, in: **l'architecture de terre en méditerranée**, Rabat, 1999, p.p.95-109.

- **YAMANI(N) et EL KORTBI (M) et MAHYAOUI (T) et BELKZIZ (A)**, <<Opération Tassoltante: diagnostic d'un mur de clôture en pisé >>, in: **l'architecture de terre en méditerranée**, Rabat, 1999, p.p.537-554.